

اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية من خلال الحملات الاستكشافية حملة المركيز ديموريس مثالا: الرهانات والمآلات

التليلى العجيلي

أستاذ تعليم عال بقسم التاريخ بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمتنوية

(تونس)

مقدمة :

بدأ اهتمام الأوروبيين بالصحراء الإفريقية والعمل على استكشافها في أواخر القرن التاسع عشر وخاصة مع مطلع القرن العشرين، حيث اشتد التنافس الاستعماري بين فرنسا وانجلترا وألمانيا. ولئن بدأ التوغّل الإنكليزي في القارة الإفريقية انطلاقا من مصر وطرابلس الغرب، أو من سواحلها الجنوبية الغربية، فإن استكشاف الفرنسيين لصحرائها بدأ سنة 1820، واشتدّ اهتمامهم بذلك بعد احتلالهم للجزائر التي اتخذوها منطلقا للتوغّل في وسط القارة.

1 - أسباب اهتمام الفرنسيين باستكشاف الصحراء الإفريقية:

تنزّل اهتمام الفرنسيين باستكشاف الصحراء الإفريقية في إطار الإستراتيجية الاستعمارية لفرنسا والرّامية إلى عدّة أهداف من أبرزها:

- تأمين حدودها الجنوبية في الجزائر: ذلك أن احتلال هذه الأخيرة مثلاً بداية تأسيس الإمبراطورية الفرنسية في إفريقيا، حيث كان "الفرنسيون يدركون أنّه لتوطيد الأمن في تلك البلاد يجب التوسّع في الحدود الشرقية والغربية والجنوبية، ومتابعة تحرّك الدولة العثمانية التي كانت ترفض ذلك الاحتلال..."⁽¹⁾، كما يعود ذلك الاهتمام أيضا إلى حرص الاستعمار الفرنسي على ضرب مواقع المقاومة الجزائرية، حيث اعتصمت عدّة قبائل بالصحراء مستغلة صعوبة وسطها الطبيعي وجهل الفرنسيين به، الأمر الذي حثّم على السلطات الاستعمارية العمل - في مرحلة أولى - على التعرف الكافي على الصحراء "باستكشاف مظاهرها التضاريسية، والمناخية، والطاقة المائية الجوفية الكامنة في باطنها...، وكذلك دراسة المجموعات السكانية وعاداتها وتقاليدها وتاريخها السياسي والحضاري، فضلا عن أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية..."⁽²⁾، بالإضافة الى الإمكانيات الدفاعية والحربية لتلك المجموعات البشرية، كلّ ذلك حتّى تكون السلطات الاستعمارية الفرنسية على دراية تامّة بالوسط الذي تنوي اقتحامه والاستيلاء عليه نهائيا، بدعوى تأمينها لحدودها الجنوبية في الجزائر⁽³⁾.

• الرّغبة في الهيمنة على مسالك التجارة الصحراوية⁽⁴⁾، وهو أهمّ سبب لاهتمام الفرنسيين بالصحراء الكبرى طيلة الفترة الممتدة بين 1852 و 1872: ففي القرن التاسع عشر كان الممرّ الرّئيسي للقوافل السودانية "هو طرابلس الغرب- غدامس"⁽⁵⁾ - غات أغدس- زيندر- كانو، مع العلم وأنّ أهمّ مركزين على هذه الطريق هما غدامس وغات: ذلك أنّه من غات يمكن الذّهاب الى مرزق- مركز فزان - والى عين صالح- مركز الصحراء الغربية - ، ومن هناك يمكن التوجّه ايضا الى تمبكتو والمغرب...، ومن هنا كان تحرّك الفرنسيين في الجزائر نحو المراكز المهمّة على الطرق التّجارية ...، نحو غدامس وغات أوّلا بسبب تجارة السودان والى عين صالح ثانيا بسبب تجارة الصحراء الغربية...⁽⁶⁾، "كلّ ذلك لتتمكّن فرنسا من ربط وجودها في الجزائر بما استولت عليه في السينغال، خاصّة وأنّها ربطت المناطق الصحراوية - بشبكة من الطرقات - بسواحل البحر الأبيض المتوسّط، مع العلم وأنّ هذه الأهداف الاقتصادية بدت بارزة للعيان في مخطّطات جلّ المستكشفين الذين عملوا على التوغّل في الصحراء الإفريقية قصد الوصول الى بلاد السّودان: من ذلك مثلا أن المستكشف مارسال بال⁽⁷⁾ (Marcel Palat) كان يرمي من وراء رحلته الى اعادة تمبكتو الى سالف مجدها بربط شعوب المنطقة بالمدن الجزائرية، بحيث يصبح - على حدّ تقديره- "بإمكان تمبكتو تلقّي البضائع الأوربية، بالإضافة الى الحبوب والصّوف والزّرابي والبرنس التلمساني، والشاشية التونسية..."⁽⁸⁾. أمّا المركيز ديموريس⁽⁹⁾ (Le Marquis de Mores) - موضوع هذه المداخلة- فكان يهدف من وراء رحلته الاستكشافية⁽¹⁰⁾ الى ربط بلاد السودان بالبحر الأبيض المتوسّط بواسطة اعادة فتح طرق القوافل الصحراوية الرّابطة بين نواحي بحيرة التّشاد والبحر الأبيض المتوسّط ، و ايصال المنتوجات الإفريقية الى ميناء بنزرت العسكري أين - وفقا لتخطيطه - " ستركّز مصاهر للحديد ، ومؤسّسات نسيجية، ومصانع للمصبّرات ، وسيكون بإمكان قبائل الرّنّوج ترويج تلك البضائع مقابل توفيرها للحيوانات ، والصّوف والجلود والصمغ والعاج وريش النعام والمعادن"⁽¹¹⁾ .

كما كان المركيز المذكور يراهن على العثور- في الصحراء - على مناجم للفسفاط والنّيترات التي ستسمح بمدّ " شبكة من خطوط السكك الحديدية تساعد على تصدير المنتوجات الفرنسية كالأسلحة والذّخيرة والسكّر والشاي والأدوية والمنتوجات الحديدية"⁽¹²⁾ .

لقد حتّمت كلّ تلك الدوافع على المستكشفين والمغامرين استغلال طرق القوافل الصّحراوية للاستفادة منها في مشاريعهم الاستعمارية ، وليفتحوا للتّجارة الفرنسية مجالا للتغلغل في قلب القارّة، فعملوا على التّخطيط لوضع شبكة من المواصلات الحديدية والبريّة وأسلاك التّلفراف لتسهيل سبل

التنقل للقوّات العسكرية بين مختلف المناطق الصحراوية التي كان المستكشفون و الدّارسون و المتخصّصون قد درسوا مظاهرها التّوبوغرافية والمناخية ، وحدّدوا المناطق التي تصلح لمُدّ الخطوط الحديدية وشقّ الطرق ، وبيّنوا مختلف الصّعوبات التي تعترض سبيل تلك المشاريع ، وقدموا لها الحلول والمقترحات وفق المعطيات الميدانية⁽¹³⁾

أنّ المتتبع لجلّ الدراسات التي قام بها العديد من المغامرين ، وخاصة من الدّارسين والمختصّين ، يلاحظ بوضوح خوف وحذر الفرنسيين من الصّحراء وخاصة من سكّانها ، الأمر الذي جعلهم - تأمينا لأنفسهم، وتوفيرا منهم لأسباب النجاح لحملاتهم الاستكشافية - يعوّلون على حماية العديد من الطرق الصّفية لهم لما كانت تتمتع به من نفوذ روحي على أغلب سكان المناطق الصحراوية ، والذي وظّفته في حماية العديد من المستكشفين اعانة منها لهم على نجاحهم في مهمّاتهم الاستكشافية⁽¹⁴⁾ .

2 - الرحلة الاستكشافية للمركز ديموريس :

الرّهانات : سبقت الإشارة الى الطّموحات الخيالية والمشاريع الاستعمارية الطوباوية - وفقا للمدرسية السّانسيمونية التي كانت سائدة آنذاك - التي كانت تحرّك مختلف المستكشفين ، لكن وجبت الإشارة أيضا الى الأهداف السياسية والأمنية التي كانت وراء ذلك ، حيث كانت السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر حريصة - في اطار حرصها على تأمين حدودها الجنوبية فيها من خطر الثّوارق - على تطبيع علاقاتها بهم لما كانوا يكتّونه من عدااء سافر لها :

ذلك أنّ ثوارق الهقّار والأزجير والقوقاس يعتبرون من أهمّ فصائل الثّوارق الذين يمتدّ نفوذهم من مرزق الى توات على الحدود الغربية للجزائر، حيث تعتبر غات أهمّ مركز تموين لهم ، اذ يعيشون من كراء جمالهم للقوافل التجارية الصحراوية⁽¹⁵⁾، لذلك اعتبروا أنّ كلّ أوروبي يحلّ بينهم لا هدف له الا دراسة منطقتهم ومعاينة امكانياتهم قصد الاستيلاء على بلادهم وتحويلهم الى عبيد⁽¹⁶⁾ .

كما كان الثّوارق يرون في مدّ خطوط السكك الحديدية تهديدا مباشرا لمواردهم الحياتية⁽¹⁷⁾، لذلك عارضوا دخول كل أوروبي لمجالهم، معتبرين "كلّ مستكشف ليس سوى جاسوس أرسل خصيصا لمعرفة المنطقة ودراستها ، ليعود مدعوما بالقوّات العسكرية لاستعمارها..."⁽¹⁸⁾ .

ان تلك النظرة العدائية القائمة هي التي حالت دون تأمين المستكشفين ، وأدّت بالتالي الى تصفية العديدين منهم، بل وجعلت الحدود الجنوبية للوجود الفرنسي بالجزائر غير آمنة نظرا للغارات التي كان يشنّها الثّوارق ، لذلك كان لا بدّ على السلطات الاستعمارية من أن تسعى جاهدة لإزالة تلك الصّورة التي كانت لدى الثّوارق على الأوربيين عامّة والمستكشفين خاصّة عبر تطبيع العلاقات معهم بواسطة من بعض مشائخ الطرق الصّوفية الذين لعبوا دورا بارزا في هذا المجال⁽¹⁹⁾ .

تجدد الإشارة الى أنّ المركز ديموريس وصل الى تونس يوم 20 مارس 1896 صحبة زوجته، حيث أحاط المقيم العام علما برحلته الاستكشافية في الصحراء انطلاقا من "مقاطعة قسنطينة" (Province de Constantine)، الأمر الذي حثّم عليه - على حدّ قوله - الاتفاق في هذا الشأن مع السلطات الجزائرية، مشيرا الى أنّ هدفه هو التحوّل الى غاط أولّا ، ومنها الوصول الى مهدي السنوسية بالكفرة ، ثمّ الى مهدي السودان المصري ، ليبرم مع كلّ منهما حلفا ضدّ توسّع التأثير الأنقليزي في افريقيا ، مدّعيا تمتّعه - على حدّ قوله - بتعهّد الطريقة السنوسية بحمايته في الصحراء⁽²⁰⁾.

يوم 29 مارس ألقى محاضرة عامّة بقاعة المسرح ، دعا فيها الى "تحالف فرنسي - اسلامي ضدّ التوسّع الأنقليزي في القارة الإفريقية..."⁽²¹⁾ ، ليغيب عن الأضواء الى حدّ يوم 23 أفريل 1896 ، تاريخ قدومه الى الإقامة العامّة من جديد لإحاطتها علما بأنّه على اثر التحرّيات التي قام بها تأكّد له أنّ انطلاقته ستكون من تونس بدلا من الجزائر، معلنا كذلك أنّ مخطّط رحلته تغيّر أيضا ، حيث أصبح الهدف الأساسي من رحلته الاستكشافية هو الأجير (L'Air) وزندر (Zinder) ، للدخول - بعد ذلك - الى بونو (Bornou) وسوكوتو (Sokto)⁽²²⁾.

لقد طلب ديموريس الإعانة والحماية من الإقامة العامّة ، الأمر الذي دفع المقيم العام الى التأكيد له على أنّ تونس لا يمكنها أن تكون نقطة انطلاقه لرحلته ، وأنّه لن يسمح له باجتياز خطّ الحدود القصوى للوجود الفرنسي في جنوب البلاد التونسية للتوجّه نحو الصحراء ، الأمر الذي أثار احتجاج المركز، فما كان من المقيم العام إلا أن وضعه على اتّصال بالمقدّم ريبيلي (le Commandant Rebillet) ، المكلف في الإقامة العامّة بقضايا الصحراء ، مزوّدا له بكل المعلومات الضرورية المتعلقة بها .

تجدد الإشارة الى وقوف مختلف المسؤولين الفرنسيين في تونس على النقص الفادح لدى المركز في التجهيزات اللازمة ، وبالأخصّ الجهل التام لديه بالوسط الذي ينوي التوغّل فيه ، والإخطار التي تنتظره في المجال الحيوي للتّوارق ، ومع ذلك فانه لم يتراجع عن عزمه ، ممّا دفع بالمقيم العام الفرنسي الى الزامه كتابيا بأن لا ينطلق في رحلته الاستكشافية من تونس ، والتحوّل من الجنوب التونسي الى الجزائر ، مع العلم وأن التعليمات صدرت الى السلطات الفرنسية العسكرية والمدنية هناك بعدم تحمّلها لأيّة مسؤولية في اعداد حملة المركز ، وملازمة الحياد التام تجاهها ، بل ومراقبة مسار رحلته عن كثب حتّى لا يحيد عمّا التزم به⁽²³⁾.

إنّ ادراك المركز لخطورة المجال الذي سيكتشفه حثّم عليه ليس فقط تأمين نفسه ، وإنّما كذلك توفيره لأقصى حظوظ النجاح لرحلته ، لذلك حرص على الحصول على ضمانات من الطريقة الصّوفية التي ستخترق حملته الاستكشافية مجال نفوذها الروحي.

لقد كان المركيز ديموريس يرمي الى الوصول الى غدامس وغات ليتوغل من هناك في قلب القارة الإفريقية لتتعرّف عن قرب على الأوضاع في بلاد السّودان، وهي مبادرة - رغم ما كان يحفّ بها من أخطار - فأنّه أقدم عليها لتدعيم نفوذ بلاده، وللتّأج التي قد تجنيها حكومته من رحلته ان هو نجح فيها⁽²⁴⁾.

ونظرا لسيطرة الطريقة السنوسية⁽²⁵⁾ على المناطق الممتدة على الطريق التي سيسلكها من الجنوب التونسي حتى غات مرورا بغدامس، كان لابد له من الحصول من شيخها على رسالة تضمن له من جانب الطريقة المذكورة الحماية الضرورية في الصحراء⁽²⁶⁾، وتحقيقا منه لذلك أوكل المهمة الى الشيخ محمد بن عثمان الحشائشي التّونسي⁽²⁷⁾، الذي أعدّ رسالة باسم المركيز ديموريس وقصيدة في مدح الطريقة السنوسية، وارتحل يوم 10 ماي 1896 الى واحة الكفرة على طريق البحر الى بنغازي، ليقتصد انطلاقا منها زاوية السنوسية، على أن يرحل من الكفرة الى غات ليلتقي فيها بالمركيز ديموريس بعد أن يكون قد أعدّ له مقابلة خاصّة مع شيخ السنوسية⁽²⁸⁾، وبالفعل التقى الحشائشي بالشيخ السنوسي يوم 25 ماي 1896، وألقى بين يديه قصيدة مطوّلة نالت رضا⁽²⁹⁾.

من جهته، أجلّ المركيز مغادرته للحاضرة تونس الى قابس الى شهر ماي 1896، حيث أمكنه خلال ذلك انتداب افراد الفريق الذي سيصاحبه، والذي تكون - في خطّة مترجم - من التونسي عبد الحقّ ابن الشيخ الورتاني المدير السابق للأوقاف، و الغدامسي الحاج علي المستقرّ في تونس، وأحد أعيانها من كبار التجار الذين كانوا دائما في رحلات بين غدامس، غات، طرابلس الغرب وتونس، والذي قبل باقتياده لقافلة المركيز حتى غات مرورا بتمسانين (Temassinin)، مع العلم وأن عقدا تمّ إبرامه في الغرض على أن يأتي الحاج علي معه ب"الدليل" (le guide) علي السيناووني (Sinaouni) وثلاثة من الخدّام الزّنوج، في حين وفرّ المركيز من جهته ثلاثة من الخدّام الآخرين وهم الجزائريين أحمد ومحمد، والتونسي علي الزمرلي، كما أقحم معه كذلك عدد من الزنوج المستقرّين بتونس، واشترى حمولة قيمتها 40000 فرنكا وزّعها على جمال قافلته⁽³⁰⁾.

بعد شهر مكثه بالحاضرة تونس، قصد المركيز قابس يوم 6 ماي 1896 معوّلا الوصول الى الجزائر عبر طريق نفزاوة، ببر الّصف (Bir- Erreçof) الذي سيّجّه منه الى قصر الحيران (Ksar-el- Hairan)، الأبيض (El- Abiodh) وتمسانين⁽³¹⁾، في نفس الوقت جدّد المقيم العام تعليماته الى السلطات المدنية والعسكرية بالجنوب التونسي والمتعلّقة بالموقف من المركيز وضرورة مراقبة مسار رحلته، كما وجه تلغرافا الى كل من وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية والوالي العام للجزائر لإحاطتهم علما بما عزم عليه ديموريس⁽³²⁾.

في قابس بادر الى تهينة قافلة تكوّنت من 38 فردا و 47 جملا محمّلة ب 4000 كلغ ، مع العلم وأنّه أبرم - كما ذكرنا - عقودا مع بعض الأهالي لمصاحبته في رحلته ، كما اُكترى أدلاء⁽³³⁾ .

تجدد الإشارة الى أنّ المركيز سلك طريقا تميّز بوفرة نقاط الماء به وهي : قبليّ - دوز - بير سرارة الحجاف (Bir-Serera- el-Haguef) - بير كسيرة (Bir-Kcira) - بير جنين (Bir-Jenneyan) - بير زهار (Bir-Zahar) - بير الوطيّة ، وهي " خطّ ماء (ligne d'eau)" يوجد بالكامل في الصحراء ويعود الى قبائل تونسية ك: الحضارة والمرازيق ، وأخرى جزائرية ك: الشعانبة والتّوارق⁽³⁴⁾ .

للتذكير ، فان المركيز ديموريس ألقى في قابس محاضرة حول الهدف من رحلته ، ليتوجّه يوم 15 ماي الى نفاوة أين أخذ ثلاثة من الأدلاء من المرازيق بالإضافة الى آخرين التزموا بإيصاله الى الحدود الجزائرية ، وبذلك تكون قافلته قد تألّفت - في الأخير - من 39 فردا و 47 جملا غادروا قبليّ متوجّهين الى دوز التي بانطلاقا منها عمد المركيز فجأة الى تغيير مسار رحلته ، الأمر الذي دفع المقيم العام الى فتح تحقيق لتحديد المسؤوليات⁽³⁵⁾ ، مع العلم وأنّ ديموريس اتّجه نحو الجنوب الشرقي متّبعاً طريق القوافل ، ليصل يوم 21 ماي الى بير الرّصف ثمّ الى بير سرارة ، فبير ابراهيم يوم 22 ، 27 الى وادي كبيرة ، 28 الى وادي الشّلايكية ، 30 الى جنين ، 31 الى زهار ، ويوم 3 جوان الى بير الوطيّة⁽³⁶⁾ ، حيث تحدّث بعض المصادر عن محادثات دارت بينهم وبينه قصد استعانتهم بهم في اتمام رحلته ، لكن آل الأمر في النهاية الى تصفيته مع البعض من مرافقيه ، وذلك على بعد 3 كلم من بير الوطيّة ، وعلى مسافة 150 كلم من ذهبية أين يوجد آخر مركز عسكري فرنسي في أقصى جنوب البلاد التونسية⁽³⁷⁾ .

3 - المآلات :

تجدد الإشارة الى وصول التونسي علي زمري الى ذهبية يوم 14 جوان ، معلنا نبأ قتل المركيز من طرف التّوارق والشعانبة ، ذاكر اعتراض توارق الضوغاس - فرع الشيخ عقبة بن بشاوي المعروف في كل من الجزائر وتونس - للقافلة ، والذين انضاف اليهم الشعانبة ، بحيث فاق عددهم الجملي الثلاثين فردا فدارت مواجهة بين الطرفين أسفرت عن قتل المركيز وأربعة من مرافقيه وهم : عبد الحق ، الحاج علي و الجزائريين أحمد ومحمد⁽³⁸⁾ ، في حين أمكن للبعض الإفلات من القتل⁽³⁹⁾ .

لقد تمّت تصفية المركيز - كما أشرنا - من طرف التّوارق والشعانبة⁽⁴⁰⁾ يوم 9 جوان 1896 قبل أن يصل حتّى الى غدامس ، ومرّ أسبوع كامل على الواقعة دون أن تحرّك السلطات الاستعمارية ساكنا ، ويوم 19 جوان انطلق البعض من التونسيين من نفاوة ، كما انطلق البعض الآخر من تطاوين قصد البحث عن جثة المركيز⁽⁴¹⁾ ، التي تمّ العثور عليها يوم 28 جوان وحملت الى قبليّ . أمّا الحشائشي ، فما أن تناهى الى سمعه خبر قتل المركيز حتى طار عائدا أدراجه⁽⁴²⁾ .

تجدر الإشارة الى أنّ فرسان أرسلوا - من قبلي - من قبل القائد العسكري لانتشال جثة المركيز وهم : باش شاوش مخزن قبلي وسعيد بن ناصر بالإضافة الى خمسة معاونين تمّ اختيارهم من بين المرازيق ، غادروا قبلي يوم 20 ماي ، ووصلوا الى بير الوطنية يوم 28 منه أين أمكنهم العثور على جثتي كل من المركيز وعبد الحق اللتين حملتا على المهاري ، فوصلتا الى قبلي بعد مسيرة أربعة أيام ونصف⁽⁴³⁾ .

لقد أمكن التعرف⁽⁴⁴⁾ على جثة المركيز من قبل ممثلي عائلته ، في حين تمّ ذلك بالنسبة الى جثة عبد الحق من طرف أفراد عائلته ، مع العلم وأنّه تمّ نقلهما بواسطة سفينة الى الحاضرة تونس⁽⁴⁵⁾ .

لئن اعتبرت تصفية المركيز أمرا عاديا بالنسبة الى الثوار باعتبار أن ذلك كان مصير الغالبية الساحقة من المستكشفين الذين كان لا بدّ من قتلهم حتى لا يعودوا تتبعهم الجيوش الجرّارة ، فانه مثل - بالنسبة الى السلطات الفرنسية - ضربة قاصمة جعلتها عاجزة عن الردّ خوفا من تفاقم عدد ضحاياه ، حتّى أنّها أبرقت الى الملازم لوبوف (Le Boeuf) لمنع من التحوّل بنفسه للبحث على جثة المركيز⁽⁴⁶⁾ ، علما وأن بعض الأهالي من التونسيين الذين ذهبوا للبحث على جثة المستكشف الفرنسي قطعوا المسافة الفاصلة بين قبلي ومكان الحادثة ذهابا وإيابا دون أن يتوقّفوا ، حيث قدّرت المسافة اليومية التي قطعوها على جمالهم بمائة كيلومتر، حتّى أنّ تلك الجمال ما أن وصلت الى قبلي حتّى سقطت ميّنة من فرط الإعياء⁽⁴⁷⁾ ، كلّ ذلك، خوفا من أن يدركهم الثوار فيلقوا نفس مصير المركيز، وبذلك استحال على السلطات الفرنسية الظفر بقتلة المركيز رغم مرور حوالي سنتين على تصفيته ، الأمر الذي عدّه البعض من الفرنسيين آنذاك تقصيرا من الحكومة الفرنسية ، وهوّا من شأنه - حسب زعمهم - أن يمسّ بهيبة فرنسا في الصحراء ، باعتبار أنّ السكوت على القصاص سيفسّر بالضعف والعجز، الأمر الذي من شأنه أن يزيد المناوئين لفرنسا ، والمناهضين لتوغّلها الاستعماري قوّة ، وبذلك سيستمرّون في تصفية المستكشفين الواحد تلو الآخر⁽⁴⁸⁾ .

ان ما يؤكّد عجز الأوساط الرّسمية الفرنسية ، هو اضطرار أرملة المركيز الى التحرك بإمكانياتها الفردية حيث بادرت الى كتابة رسالة بتاريخ 8 نوفمبر 1897 باللغة العربية راجت آنذاك في كل من الجزائر وتونس⁽⁴⁹⁾ ، أوضحت فيها أنّها مصمّمة على الثأر من قتلة زوجها ، " واعدة كلّ من يسلمهم الى السلطات - سواء بورقلة أو القليعة - بمنحه مبلغا ماليا هامّا يقدر بألفي دورو لثلاثين من القتلة ، وثلاثة آلاف لثلاثة منهم ، في حين رصدت ألفي دورو لكلّ من يلقي القبض على واحد من القتلة الرئيسيين ... " ⁽⁵⁰⁾

ومن جهته أعلن والي ورقلة أنّ الحكومة الفرنسية تعد بمنح منصب قايد لكلّ من يسلمها قتلة المركيز ديموريس⁽⁵¹⁾ .

رغم تلك المكافآت المغرية ، لم يجرئ أحد على المغامرة بحياته لعلم الجميع بمصير كل من تخوّل له نفسه الإقدام على ذلك خشية من سكّان الصحراء ، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية نفسها تقتنع بأن أفضل من يقوم بمهمة إيقاف قتلة المركيز هم مشائخ الطرق الصوفية لما لهم من نفوذ روحي بين التوارق من شأنه أن يمثّل أفضل حصانة لهم بينهم، لذلك لا غرابة في أن يبادر المسؤول عن المكتب العربي بوادي سوف بمراسلة الشيخ محمد الهاشمي بن ابراهيم – نائب الطريقة القادرية بالمكان المذكور- طالباً منه ارسال أحد رجاله لتقصّي الحقائق حول ظروف مقتل المركيز ، والإتيان بما خلفه من أوراق ووثائق⁽⁵²⁾ .

بعد حوالي سنتين على مقتل المستكشف المذكور، تطوّع – في أبريل 1898 – محمد الطيّب بن ابراهيم نائب الطريقة القادرية بزاوية الرّويسات قرب ورقلة بالذهاب الى غدامس وغات بتعلّة تفقّد الزّوايا القادرية هناك ، وبالفعل ما أن وصل الى هناك حتى تأكّد من وجود الذين اشتركوا في قتل المركيز على بعد مسير أربعة أيّام من هناك ، فبادر الى الإرسال في طلبهم ، وتبعاً لما كانوا يكتّونه له من اجلال وصلوا الى غدامس بعد عشرة أيّام من وصوله اليها، حيث سردوا عليه ، خلال الأسبوع الذي قضوه في ضيافته ، وقائع الحادثة بكل تفاصيلها⁽⁵³⁾ ، وبذلك الاستنطاق غير المباشر أمكن للشيخ تحديد القتلة الحقيقيين الذين طلب منهم مرافقته حتى غات ، أين مكثوا خمسة أيّام اتّجهوا بعدها نحو الحدود التونسية ، مع العلم وأن الشيخ المشار اليه عبر ذهابا التراب الجزائري ، لكنه في طريق العودة آثر الدخول عبر الحدود الجنوبية للبلاد التونسية تجنّباً منه للشّعائبة الذين ينتمي اليهم قتلة المركيز الذين كانوا برفقته ، فخاف افتضاح أمره ، لذلك غير مسار طريق عودته⁽⁵⁴⁾ .

لقد أكّد محمد الطيّب بن ابراهيم لمرافقيه أنّ مكانته الدينية ومنزلته لدى حكومة باي تونس والسلطات الفرنسية بها ستمكّنه من أن يحصل لهم على الأمان ، وبذلك غرّر بسبعة من الشعائبة ، فلم يتردّدوا في مرافقته حتّى فمّ "تطاوين" التي وصلها يوم 27 جوان 1898 مصحوباً بالمتّهمين : بلخير، بن عبد القادر، حمّة بن يوسف، حمّة بن الشيخ، علي بن حمّة ، العيد بن لخضر، قدّور بن باح ومحمد بن بسّيس ، مع العلم وأن الثلاث الأوائل اتّهموا بالمساهمة المباشرة في "الجريمة"⁽⁵⁵⁾ لذلك ما أن وصلوا حتّى تمّ تجريدهم من سلاحهم وايداعهم السجن⁽⁵⁶⁾ .

بعد أربع سنوات من الاعتقال بدأت محاكمتهم في سوسة يوم 21 جويلية 1902 ، وحكم بالإعدام على المدعو الخير، في حين حكم على المسمّى حمّة بن الشيخ بعشرين سنة أشغال شاقّة ، بينما كان حمّة بن يوسف قد توفّي بالسجن منذ مارس 1900⁽⁵⁷⁾ . وفي أكتوبر 1902 طلب الخير العضو من المركيزة ، فوافقت على التماسه الذي حظي كذلك بموافقة رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك ، وأبدل حكم الإعدام بالأشغال المؤبّدة⁽⁵⁸⁾ .

أمّا محمد الطيّب بن ابراهيم فإنّ مهمّته تلك قد أثارت قضية ديموريس من جديد بعد أن ظنّ العديد من الفرنسيين أنّها قبرت ، الأمر الذي دفع السلطات الاستعمارية في تونس - على اثر عودته مصحوبا بالقتلة - الى ايقافه مدّة تسعة عشر يوما ، ويعودته الى ورقلة وجد منزله قد خرب ، ومزارع حقوله قد أتلّفت من طرف الشّعائبة ، وخوفا على حياته لاذ بالفرار⁽⁵⁹⁾ ، مع العلم وأنه كان تسلّم من البارون جون دوجال (Le Baron Jean de Gail) - أحد أقرباء أرملة المركيز ديموريس - مبلغ عشرة آلاف فرنك مكافأة له على انجاز المهمة⁽⁶⁰⁾ ، لكن تحت ضغط حملات الصحافة الفرنسية آنذاك⁽⁶¹⁾ اضطر محمد الطيّب بن ابراهيم الى ارجاع المبلغ المذكور⁽⁶²⁾ ، وبذلك يكون الشيخ المشار اليه قد قام مجانا بمهمة غاية في الخطورة كان بالإمكان أن تكلفه حياته ، لذلك لا غرابة أن يقترح الوالي العام للجزائر - تقديرا منه للنتائج التي ترتبت على حدّ قوله على مهمة الشيخ والتي كلّفته وفق تقديره فقدانه لنفوذه وثقته بين الشّعائبة⁽⁶³⁾ - ترشيحه لنيل وسام صليب فارس لنيشان الافتخار (La Croix de chevalier de la légion d'honneur)⁽⁶⁴⁾ ، وبالفعل تحصّل محمد الطيّب على لقب آغا شريف (Agha honoraire) ، ونيشان الافتخار⁽⁶⁵⁾ .

تجدر الإشارة الى أنّ خدمات محمد الطيّب السّالف الذكر لم تقتصر على جلب قتلة المركيز ديموريس وتسليمهم للسلطات الفرنسية بتونس ، وإنّما تمثّلت كذلك فيما هو أخطر من ذلك ، حيث قدّم للسلطات المشار اليها كشفا تضمّن معلومات ميدانية غاية في الدقّة ، تعلّقت بما شاهده أثناء رحلته من ورقلة الى غدامس وغات ومن هذه الأخيرة الى تطاوين⁽⁶⁶⁾ ، اذ تضمّن كشفه مسحاً ميدانيا لما شاهده خلال رحلته التي استغرقت أربعاً وثمانين يوماً ، اذ بدأت يوم 1 أفريل 1898 وانتهت يوم 23 جوان من نفس السنة⁽⁶⁷⁾ الأمر الذي يحملنا على القول بأن الرجل أخذ الوقت اللازم للتأمّل والتدقيق ، وتسجيل معلومات تعلّقت بالتضاريس كالجبال بتحديد مواقعها وتكوينها الجيولوجي الظاهر للعيان ، والسهول والأودية ، فضلا عن الغطاء النباتي⁽⁶⁸⁾ ، وأخرى حضرية تعلّقت بتقديمه لمعلومات تقديرية حول عدد سكّان بعض التجمّعات والطبيعة الأثنية للعناصر المكوّنة لها ، مع اشارات للمسافات الفاصلة بين بعض المدن التي حدّد مواقع بعضها والطرق المؤدّية لها⁽⁶⁹⁾ ، علما وأنّه وصل به الأمر أحيانا الى وضع رسم هندسي كما كان الشأن مثلا بالنسبة الى غدامس التي استوفى حديثه عنها ليس فقط بتحديد موقعها وذكره لأهم قراها وإنّما وضع لها أيضا رسما موضّحا للطرق التي تصلها ، وتلك التي تنطلق منها في الاتجاهات الأربع⁽⁷⁰⁾ ، الأمر الذي زاد تلك المعلومات خطورة على أمن المناطق التي ذكرها ، كلّ ذلك بالإضافة الى معلومات أثرية ، حيث أشار الى أنواع الآثار التي مربّها ، وحتّى الكتابات والنقوش التي كانت تحملها⁽⁷¹⁾ ،

وهي كلّها معلومات حول مجالات شتى أكّدت أن الرجل تحوّل بالفعل الى مستكشف استكمل - بما وفّره من معلومات للسلطات الاستعمارية الفرنسية - المهمة التي قتل المركيز ديموريس دونها:

ذلك أن المعلومات المشار اليها أنارت نسبيا السلّطات المذكورة حول مجال ظلّ بالنسبة اليها مجهولا ، الأمر الذي يمكنها أن تستفيد ممّا قدّم اليها ان هي قرّرت التوغّل في عمق الصحراء .

ان آخر ما نوّد الإشارة اليه في أمر الشيخ محمد الطيّب بن ابراهيم ، هو أن خدماته لسلطات الاحتلال الفرنسي لم تقتصر على ما ذكر، وانّما تعدّته الى الدور البارز الذي لعبه في مساعدة القوات الفرنسية في استيلائها على عين صالح ، حيث أنجد بصورة ناجعة لويس بان (Louis Pein) - قائد طابور المشاة -

في حملته عليها (توفمبر 1899 - مارس 1900) ، وكذلك أثناء احتلاله للتّوات (جوان 1900 - جوان

1901) ، حيث قتل محمد الطيّب بن ابراهيم بيديه قايد أولاد بن باجودة الذي كان يقاتل الفرنسيين

على رأس ألف ومائتين من الفرسان ⁽⁷²⁾ ، ويعدّ تكوّن بعثة فلاماند (Flamand ,G.B.) "منح محمد

الطيّب شرف الانضمام اليها كمساعد وحام لها...." ⁽⁷³⁾ ، كما كان ضمن كتيبة أرماند سارفيار (

Armand Servièrès) "يقاتل بنفس الولاء والإخلاص للفرنسيين أثناء احتلالهم للقوّارة ، حتّى سقط

قتيلا تحت جدران قصر شاروين على الحدود الجزائرية المغربية يوم 5 مارس 1901 ..." ⁽⁷⁴⁾ ، وبذلك يمكن

القول بأن شيخ زاوية القادرية بورقلة ظلّ على ولائه المطلق للاستعمار حتى آخر رمق في حياته ، فما الذي

يفسّر ذلك ، رغم ما عرفت به الطريقة القادرية من مناهضة له ؟ .

لا بدّ في البداية ، من التّذكير بما كان للقادرية من أدوار بطولية في الجزء الشمالي للجزائر:

فالناصر بن شهرة (ت.1884) - أحد أبطال ثورة 1871 - كان ينتمي اليها ⁽⁷⁵⁾ ، كما أنّ الثورة التي

اندلعت - في أفريل 1864 - في فليّة بجبال الونشريس وحوض الشّلف ، كانت بزعامة الشيخ المتصوّف

الأزرق بالحاج احد أتباع الطريقة القادرية ، ومؤيّد ثورة أولاد سيدي الشيخ ⁽⁷⁶⁾ ، ومن جهته فإنّ ابراهيم بن

عبد الله أحد أبطال ثورة 1864 ⁽⁷⁷⁾ ، كان مقدّمًا للطريقة القادرية التي عرفت - في النّصف الأوّل من

القرن التاسع عشر - بمساندتها لكفاح الأمير عبد القادر (ت.1883) ، الأمر الذي يحملنا على القول بأنّ

الطريقة القادرية - باستثناء ما صدر عن محمد الطيّب بن ابراهيم - عرفت - سواء في النّصف

الشمالي للجزائر أو في نصفها الجنوبي - بمقاومتها للاستعمار الفرنسي ، فما الذي يفسّر موقف نائبها

بزوايتها في ورقلة ؟

للتذكير ، فإنّ محمد الطيب بن ابراهيم المذكور هو ابن ابراهيم بن أحمد الكبير (ت.1878) الذي

كان - منذ 1830 - من الدّ أعداء الوجود الفرنسي بالجزائر ، حيث انضمّ الى الأمير عبد

القادر ⁽⁷⁸⁾ ، لكن باستيلاء الاستعمار على جلّ مناطق الشرق الجزائري التي كانت مجالا لدعم الطرق

الصوفية فيها - باستثناء التيجانية منها - للمقاومة الوطنية ، اضطرّ العديد من مشائخها الى الالتجاء الى الجريد الذي يمكن اعتباره امتدادا - في الشرق - (شرق الجزائر) لنفوذهم الطرقي الذي ضرب في الغرب (غرب الجزائر) ، حتى أنّ ابراهيم بن أحمد الكبير المذكور - شأنه شأن البعض الآخر من زعماء الطرق الصوفية في الشرق الجزائري - وصل - سنة 1843 - الى نفطة أين أسّس زاوية قادرية⁽⁷⁹⁾ ، لعبت دورا بارزا سنة 1870 - 1871 - في دعم المقاومة الجزائرية "بجمع السلاح والأموال... ، بل وتحوّلت الى تجمع للمجاهدين ... ، ففيها أقام محي الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري ، والنّاصر بن شهرة... ، حيث أحسن استقبالهم شيخها المشار اليه ، كما حرّضت سكّان الجريد وقبائل النّمامشة على الالتحاق بصوفوف المقاومين ، وبعد فشل ثورة 1871 عاد محي الدين من جديد الى نفطة ... ، وأقام بالزاوية القادرية بها ، وسهّل له أصحابها مغادرة البلاد التونسية والالتحاق بالشام..."⁽⁸⁰⁾ .

ازاء هذا التاريخ المشرف لزاويا الطريقة القادرية ، يعتبر موقف نائبها بزاويتها بورقلة استثناء ، ويمكن تفسيره بعدّة عوامل من أبرزها :

- اعتبار العديد من مشائخ الطرق ممّا آل اليه أمر المناهضين منهم للاستعمار، الذي قابل مقاومتهم له بانتهاجه لسياسة الأرض المحروقة ، واعتماده للقتل الجماعي ومصادرة الأموال والأرزاق والنّفي الى الجزر النّائية⁽⁸¹⁾ ، والقاء الزعامات في غياهب السجون، مع العلم وأنّ الذين فرّوا من الجزائر والتجأوا الى المناطق الغربية من البلاد التونسية ، كان مصيرهم الاعتقال بعد أن مارست السّلطات الاستعمارية بالجزائر ضغوطات على باي تونس الذي بادر الى تسليم العديد منهم⁽⁸²⁾ .
- لقد كان لكل ذلك الأثر السيّء على العديد من مشائخ الطرق الصّوفية ، حتى تلك التي عرفت بعدائها السافر والراديكالي للاستعمار كالطريقة الرحمانية⁽⁸³⁾ ، حيث أصبحوا حريصين على تقديم خدمات اثباتا منهم لولائهم للاستعمار تجنّبا لنقمته ، وطمعا في ما كان وجود به عليهم - مقابل ذلك - من انعامات وامتيازات ، حتى أنّ محمد الطيّب بن ابراهيم كان - حسب ما ذكره هو نفسه - لا يهدف من وراء ما قام به الى الحصول على المال لأنه كان غنيا ، وأنّما أراد بذلك التدليل على ولائه للحكومة الفرنسية والروابط التي كانت بينها وبين زاويته⁽⁸⁴⁾ ، فكان " سفره الى غدامس وغات كافيا لأثبات اخلاصه للمصالح الفرنسية ، التي خدمة منه لها بجمعه لمعلومات ميدانية مختلفة ، خاطر بحياته في الصحراء وسط التّوارق ، اذ لا قيمة لحياته - على حدّ قوله هو بنفسه - كلّما تعلّق الأمر بالمصالح الفرنسية..."⁽⁸⁵⁾ .

كما كان الشيخ المذكور يحدوه الطّمع ، حيث ذكر هو نفسه ، أنّه علم من والي ورقلة بوعبد الحكومة الفرنسية بمنحها لمنصب قايد لمن يأتيها بقتلة المركيزديموريس ، وهو ما دفعه الى القيام

بذلك⁽⁸⁶⁾ ، فنال - كما سبق وأن أشرنا - مكافأة له على ذلك نيشان الافتخار ولقب "آغا شريف" ، الأمر الذي يثبت نجاح سلطات الاحتلال الفرنسي في احتواء وتوظيف بعض مشائخ الطرق الصوفية بواسطة تلك المناصب والألقاب التي دفعت بعضهم الى الوقوف الى جانب قوّات الاحتلال ضدّ اخوانهم وأبناء بلدهم⁽⁸⁷⁾ ، حيث كان الحصول عليها يمرّ عبر تقديم خدمات جليلة ، كما أن فقدانها كان سببا للبعض ممّن أنعمت عليهم سلطات الاحتلال بها سببا في خروجهم عليها⁽⁸⁸⁾ .

♦ الأوضاع المادية للطريقة القادرية بالجريد في نهاية القرن التاسع عشر: سبقت الإشارة الى أن محمد الطيّب بن ابراهيم هو ابن ابراهيم بن أحمد الكبير الذي - كما ذكرنا - غادر الجزائر الى نفطة أي أسّس زاوية قادرية تحوّلت - في السنوات الأولى من النصف الثاني من القرن التاسع عشر- الى زاوية أم للطريقة القادرية بالجنوب والوسط الغربي التّونسيين ، وأصبحت لها أملاك ضخمة بالجريد⁽⁸⁹⁾ ، لكن عوامل عديدة أدّت الى دخول الزاوية المشار اليها - ابتداء من سنة 1898 - في أزمة مالية حادّة⁽⁹⁰⁾ ، دفعت محمد بن ابراهيم -أخو محمد الطيب الذي خلف أباه في مشيخة زاوية القادرية بنفطة ابتداء من سنة 1878- إلى التداين لدى عدد من يهود الجريد الذين اضطرّوا الى اقتراض مبالغ مالية كبيرة منهم ، مقابل رهنه لممتلكات الزاوية الموقوفة عليها ، الأمر الذي دفع اخويه محمد العربي ومحمد الأزهر الى اتّهامه بالتلاعب بمقدّرات الزاوية وعمليات تدليس شابت ادارته المالية لمداخيلها ، فرفعا به قضايا إلى الوزارة الكبرى متّهمين له بالإضرار بأملاك الزاوية وتزوير وثائق ، فأل أمره إلى إقالته وتعويضه بأخيه محمد العربي⁽⁹¹⁾ .

ما يهمّنا - فيما يتعلّق بموضوعنا - في أمر الزاوية أن ديونها بلغت 80000 ف في منتصف سنة 1899 ، يضاف اليها مبلغ 7858 معاليم أداءات للدولة ، فضلا عن ديونها تجاه بعض اليهود والتي وصلت مبالغها الجمالية - بتاريخ 8 سبتمبر 1899- الى 83352 ف⁽⁹²⁾ ، وهي ديون حلّت آجال تسديدها في ظرفية كانت فيها الزاوية عاجزة عن ذلك تماما ، ممّا دفع أصحاب الدّيون الى اللّجوء الى المحاكم واصدار أحكام تقضي بوجوب خلاصهم ، ورغم تدخّل السلطات الفرنسية - تقديرا منها لسمعة الزاوية- لتأجيل تنفيذ الأحكام وحمل الدّائنين على القبول بتقسيط ديونهم ليتيسّر خلاصها ، فإنّ كل ذلك لم يجد الزاوية القادرية بنفطة نفعاً ، فتمّ التّفريط في العديد من الأجنّة التي كانت على ملكها بالبيع .

أنّ ما يؤكّد فداحة الأزمة المالية التي حاقت بالزاوية القادرية بنفطة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، هو أنّ محمد الطيّب بن ابراهيم نفسه طالب - في صائفة 1898 ، أيّ بعد حوالي

شهر فقط من تغريه بقتله المركيز ديموريس وتسليمهم للسلطات الفرنسية في تطاوين

- بإعفاء زاوية نفطة بالذات من دفعها للأداء الموظف من قبل الدولة على النخيل ، مع العلم وأنه علّل طلبه المذكور بالخدمات التي قدّمها للسلطات الفرنسية بإيقافه لقتلة المركيز المذكور⁽⁹³⁾ ، مما يؤكّد الضائقة المالية الخائفة التي كانت عليها - آنذاك - زاوية ابراهيم بن أحمد الكبير القادرية بنفطة ، والتي قد تكون دفعت ابنه محمد الطيّب المذكور الى القيام - كما أوضحنا - بمهمة جلب قتلته المركيز ديموريس من أعماق الصحراء رغم الأخطار الجسيمة المحدقة بذلك ، خصوصا وأن زوجة المركيز - كما أشرنا - وعدت بمبالغ مالية مهمة لمن يأتيها بقتلة زوجها ، كما أن السلطات الفرنسية نفسها وعدت بمناصب إدارية لمن يقوم بذلك ، وهي كلّها مغريات تزامنت مع أزمة مالية خائفة لزاوية والد محمد بن الطيّب ، فلا غرابة أن يكون كلّ ذلك وراء اغرائه بالقيام بالمهمة ، خصوصا وأنّ الرجل التقى - كما سبق وأن ذكرنا - البارون جون دو قال - أحد أقرباء أرملة المركيز ديموريس - واستلم منه رسالة من المركيزة المذكورة ومبلغ عشرة آلاف فرنك مكافأة له على مهمته ، وهو مبلغ معتبر كان بالإمكان أن يخفف من حدة الضائقة المالية لزاوية أبيه بنفطة ، لكن أمام - كما أوضحنا - ضغط الصحافة الفرنسية آنذاك اضطرّ محمد الطيّب المذكور الى ارجاع المبلغ ، وبذلك يكون الشيخ المشار اليه ، ليس فقط قام بمهمة إيقاف وجلب قتلته المركيز مجانا ، وإنّما حرم من نيّله للمبلغ الموعود به ، رغم حصوله - كمذكرنا - على نيشان الافتخار ومنصب "آغا شريف".

الختامة :

رغم إبادة سكّان الصحراء لأغلب المستكشفين الذين مثّلوا في غالب الأحيان الطلائع الأولى لجيوش الاحتلال الفرنسي ، فإنّ عدّة عوامل مكّنت هذه الأخيرة من التقدم جنوبا في عمق الصحراء الجزائرية:

فبعد أن كان التوسّع الفرنسي - في بداية النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر - قد وصل الى مشارف الحدود الشماليّة للصحراء الجزائرية ، فإنّه تمكّن - في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - من " احتلال عين صال ، واحات تيدكلت ، قورارة ، التّوات ، ايجلي ، تيميمون ، فيقيق ، شاروين ، تالمين وبني سمير في الجنوب الوهراني ، واستحدثت قيادة عسكرية لجنوب الجزائر الصحراوي عام 1902 ، اتّخذت عين صالح مقراً لها...." ⁽⁹⁴⁾ ، وبذلك أمكن للفرنسيين الاقتراب من مواطن التّوارق ، والتفرّغ لإخضاعهم حتى تخلص لهم الصحراء نهائيا : فكانت معركة تيت (Tit) الشهيرة سنة 1902: ذلك أنّه بعد الاستيلاء الفرنسي على عين صالح ، و واحات تيدكلت ، ووضعهم لحامية في عين صالح لحماية الواحات والحيلولة دون استرجاع التّوارق لها ، ظلّ الضبّاط الفرنسيون في الحامية المذكورة يتلقّون

خطابات من الثّوارق يهدّدونهم فيها بالانتقام ، واسترداد مناطقهم المحتلّة ، وبالفعل نظّموا غارة خاطفة نهبت الواحات ، فما كان من كوفين (Cauvin) – قائد حامية عين صالح – الا أن شجّع على القيام بهجوم مضاد كلّ بقيادته الملازم كوتينيه (Le Lieutenant Cottenest) الذي التحم مع الثّوارق في معركة في قلب واحة تيت يوم 7 ماي 1902 " قتل فيها للثّوارق ثلاثة وتسعون رجلا، وأمكن للفرنسيين اقتحام كتلة الأحجار....." (95).

قبيسي

الكفرة

جالو

الجبوب

بنغازي

طرابلس

فزان

مرقي

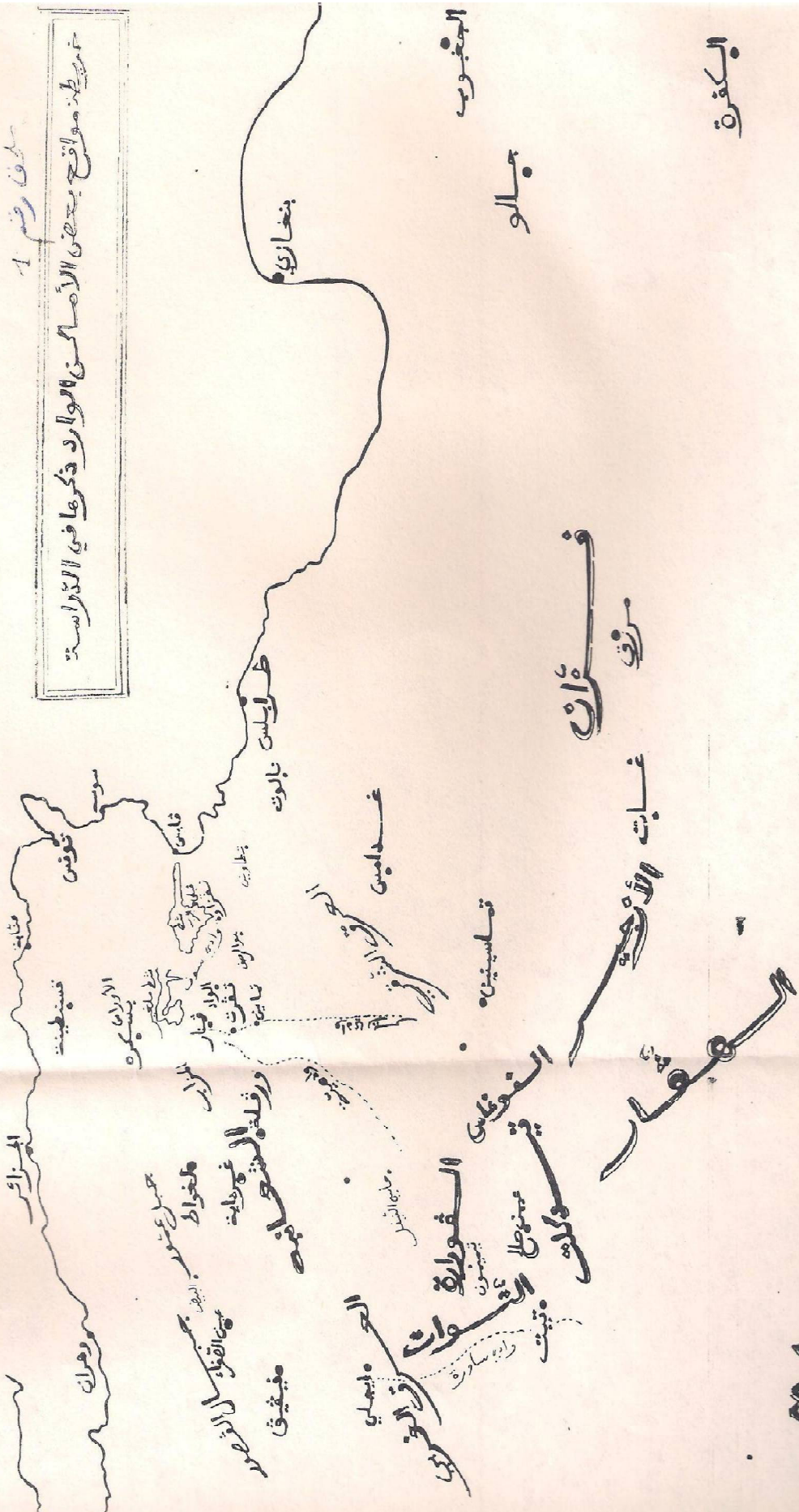
غيات

المرج

الوراق

سلف رضم 1

خريطة مواقع بعض الأماكن في ليبيا





الاحالات والهوامش :

- 1 - تشايجي(عبد الرحمان)، الصراع التركي- الفرنسي في الصحراء الكبرى، ترجمة علي إعزازي، الجماهيرية الليبية، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1982، ص 53.
- 2 - بوعزيز(يحي)، "اهتمامات الفرنسيين في جنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومن استفادتهم من طرق القوافل في غزوها"، مجلة البحوث التاريخية، ليبيا، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، السنة الثالثة، العدد الثاني، (يوليو 1981)، ص 357-369، ص 360.
- 3 - Bernard ,A. et Lacroix ,N. La pénétration saharienne 1830-1906,Alger,Imprimerie Algérienne,1906,p.2,de même, Howe,S., Les Héros du Sahara ,Paris ,Armand Colin,1931,p.5.
- 4 - حول التجارة الصحراوية، أنظر الأمد بوزيد، الحشايشي والتجارة الصحراوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، شهادة الكفاءة في البحث، مخطوطة، تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1985، وكذلك Khalifa ,Ch., »Le commerce caravanier au Maghreb et ses mutations au cours de l' ère coloniale »,The Maghreb Review ,Volume 12,numéro 3-4(Mai – Aout 1987)pp.99-104.
- 5 - حول أهم الأماكن، ومواقع استقرار بعض القبائل المذكورة في هذا الدراسة، أنظر الملحق رقم 1.
- 6 - تشايجي، المصدر السابق، ص 56.
- 7 - ولد في 1856/4/22، تخرج من مدرسة سان سير سنة 1877، التحق بالمكاتب العربية بالجزائر، شرع- سنة 1855- في استكشاف المناطق الممتدة جنوب الجزائر ونهر النيجر، قتل يوم 1886/2/21 غرب عين صالح، أنظر Faucon ,N. ,Le Lieutenant Palat :son exploration et sa mort tragique ,Alger ,Auguste Albrecht,1886.
- 8 - Ibid.,p.11.
- 9 - ولد سنة 1858 ،درس بالمدرسة العسكرية بسان- سير، عرف بحبه للمغامرات ودعوته الى تطوير التوسع الأنقليزي في القارة الإفريقية ،قام برحلة استكشافية للصحراء انطلاقا من الجنوب التونسي لقي حتفه إثناءها سنة 1896 ، حوله أنظر Martel ,A., Les confins saharo- tripolitains de la Tunisie(1881 – 1911),Paris,PUF,2T.,1965,T.1,pp.681 – 683.
- 10 - حول رحلته الاستكشافية ، أنظر Ch., Le Delahaye ,Les assassins et les vengeurs de Mores,Paris,2T.,1906, de même, Droulers , Marquis de Mores 1858 – 1896,Paris,Plon.
- 11 - Ibid.,T.2,p.20.
- 12 - Ibid.
- 13 - أنظر أهم تلك الدراسات والبحوث في بوعزيز ، المقال السابق ، ص 369 وما بعدها.
- 14 - حول دور بعض الطرق الصوفية في حماية مستكشفي الصحراء الإفريقية ، أنظر مقالنا ،"دور بعض مشايخ الطرق الصوفية في مساعدة الفرنسيين على استكشاف الصحراء الإفريقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 53 – 54 (جويلية 1989) ، ص 143 – 178 .
- 15 - El-Hachaichi , Med. Ben Otsmane ,Voyage au pays des Sénoussia à travers la Tripolitaine et les pays Touareg ,traduit par V.Seres et Lasram ,Paris ,August Challamel,1903,p.175.
- 16 - Ibid.,p. 183
- 17 - Rinn ,L., Nos frontières sahariennes ,Alger ,Adolphe jourdan,1886,p.11.
- 18 - Ibid
- 19 - أنظر أمثلة من ذلك في مقالنا المذكور سابقا، ص 150 وما بعدها.
- 20 - Institut Supérieur de l'Histoire de la Tunisie Contemporaine(I.S.H.T.C.),Fonds Quai d'Orsay, Nouvelle Série(N.S.),1882 – 1919,bobine(bob.)P39,Carton(C.)77,Affaires Mores I(3/1896 – 7/1896),Rapport sur l'expédition du Marquis de Mores, daté du 23/5/1896,folio(f.)39 – 54,f.39.
- 21 - Ibid. Télégramme du Résident général(R.G.)à Tunis au Ministre des affaires étrangères ,Tunis, le 30/3/1896,folio(f.)3
- 22 - Ibid., Rapport sur l'expédition.....,f.41.
- 23 - Ibid.,f.45.
- 24 - Ibid. ,Mores au R.G., le 23/4/1896,f.7.

25 - اعتبرت من أهم الطرق الصوفية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث أمكنها في مدة وجيزة الانتشار في عدة أنحاء من القارة الإفريقية ، وأن توجد لها عدة زوايا في غدامس ،غات ومرزق، حيث عدت أكثر الطرق الصوفية انتشارا خصوصا بين سكان الصحراء، كما كان لها نفوذ روحي على قبائل الأزجير والهقار من التوارق ، إذ كانت زواياها منتشرة في برقة و طرابلس ، وعلى طريق غدامس وفي الفران ووحدات جالو، أوجله والجغبوب وكذلك في إفريقيا الوسطى والغربية، حول ذلك أنظر مقالنا السابق الذكر، ص 147.

26 - I.S.H.T.C. ,Fonds Quai d'Orsay.....,Rapport sur l'expédition du Marquis de Mores ,Tunis, le 23/6/1896,f.39.

27 - ولد في 1855/6/12 ، دخل جامع الزيتونة سنة 1870 ، فتحصل على شهادة التطويع وانتصب للتدريس به، عرف بحبه للتجوال والاستطلاع ، استفاد منه المستشرقون وخاصة منهم الفرنسيين الذين استغلوا مواهبه ومعلوماته وخبرته، توفي سنة 1912 ، حوله ، أنظر الحشاشي محمد بن عثمان التونسي ، رحلة الحشاشي الى ليبيا(جلاء الكرب عن طرابلس الغرب)، تقديم وتحقيق علي مصطفى المصراطي، دار لبنان للطباعة والنشر، ط.1، 1965، ص 27 – 14 .

28 - المرزوقي (محمد) ، صراع مع الحماية ، تونس ، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل ، 1973 ، ص 120.

29 - El-Hachaichi ,Op.Cit.,p.83.

30 - I.S.H.T.C.,Fonds Quai d'Orsay.....,Rapport sur l'expédition.....,f.47.

31 - Ibid. , ,Fond Quai d'Orsay.....,bob.P39,C.77,Télégramme , daté du 7/5/1896 ,f. 9.

32 - Ibid.,Rapport sur l'expédition.....,f.47

33 - Ibid. , Le R.G. à Tunis au Ministre des affaires étrangères françaises , le10/6/1896 , f. 21.

34 - Ibid. , Télégramme daté du 18/6/1896 , f.29 .

35 - أنظر ما جاء فيه في

Rapport du R.G. à Hanotaux ,Ministre des affaires étrangères françaises, le 25/7/1896,f.165 – 179.

36 - Ibid. , Rapport sur l'expédition du Marquis de Mores , le 23/6/1896 , f.39-54 ,f.50.

37 - Ibid. Télégramme daté du 18/6/1896 ,f.29.

38 - Ibid. ,Rapport sur l'expédition ... ,f.50.

39 - نذكر منهم – على سبيل المثال – كل من صالح بن عيسى كباش ،(أنظر ما جاء في استنطاقه في

bob.39,C.78.,Le R.G. à Hanotaux,Ministre des affaires étrangères françaises ,le 29/7/1896,f.7-29.)

وكذلك الرنجي المدعو صالح بن العتري ، حول ما جاء في استنطاقه ، أنظر

du même au même , le 19/8/1896,f.54 – 59.

40 - Ibid., le R.G. à Tunis au Ministre des affaires étrangères françaises, le 17/6/1896,f.26.

41 - Ibid. Télégramme , du même au même ,le 26/6/1896,f.108.

42 - El-Hachaichi , Op.Cit. ; p.83.

43 - I.S.H.T.C., Fonds Quai d'Orsay , bob. P.39, C77,...,Note datée du 8/7/1896 , f.149.

44 - تجدر الإشارة الى تعضن الجثث وصعوبة التعرف على هوياتها ليس فقط للمدة التي مرت عليها في الصحراء ، وإنما كذلك للإصابات العديدة التي كانت تحملها والتي أشار اليها تقرير الطبيب الشرعي ، حول ما جاء فيه ، أنظر

le R.G. à Tunis à Hanotaux ,Ministre des affaires étrangères françaises, le 25/7/1896,f.180 – 196.

45 - Ibid. ,Le R.G. à Tunis au Ministre des affaires étrangères françaises , le 8/7/1896 , f.147.

46 - Droulers,Op.Cit.,p.240.

47 - Ibid. p.241.

48 - Bernard et Lacroix, Op.Cit.,pp. 90 – 94.

49 - أنظر النص الفرنسي لها في

Plaidoiries de Mr De las Cases et de Mr. Broussais pour Mme La Marquise de Mores ,Le Crime d'El-outia ,assassinat du Marquis de Mores ,Paris , Typo. Plan- Nourrit , p.7-8 .

50 - Ibid,p.8.

51 - I.S.H.T.C., ...N.S.,bob.187,C.79, Affaire Mores III (8/1898 – 9/1902) , Note datée du 21/8/1898,f.19.

52 - Ibid.,bob.P39,C.77,Affaire Mores I ,(3/1896-7/1896),Med El-Hachmi ben Brahim - Naib des Kadria à Oued- souf – au Capitaine Chef du bureau arabe d'El oued, le 5/7/1896 . f. 197 .

53 - Ibid.,.....,bob. 187,C.79,Affaire Mores III , La capture des assassins du Marquis de Mores ,rôle d'Ali Zmerli ,récit du Cheikh El-Hadj Med Taieb ben Brahim ben Ahmed Echerif – Naib des Kadria de Ouargla - (traduit de l'arabe),f.53 .

- 54 - Ibid. ,.....bob.P.39,C.78, Affaire Mores II (7/1896 – 8/1898), Med Taieb ben Brahim au Général commandant la subdivision de Laghouat , le 1/7/1898 ,f.184 .
- 55 - Ibid. Le Chef d'escadrons d'Assailly ,Commandant supérieur du Cercle de Médenine ,au Générale commandant à Gabes, le 30/6/1898,f.168.
- 56 - Ibid., Le Chef d'escadron d'Assailly – Commandant supérieur du cercle de Médenine au Général commandant militaire , le 30/6/1898 ,f.169, de même Droulers , Op.Cit. , p.245.
- 57 - Droulers ,Op.Cit.,p.247, de même Martel,Op.Cit.,T.1,p.721.

58 - المرزوقي ، المرجع السابق ، ص 392 ، وكذلك

Droulers , Op.Cit. , po.248 .

59 - Ibid.,p.245.

60 - I.S.H.T.C.,.... ;bob.187 ,C.79 , Affaire Mores III f.21 .

61 - أنظر مثلاً

« Le bon chaambi » , Le Figaro , numéro 235 , du 23/8/1898,p.1.

62 - Droulers , Op.Cit. ,p.246 , de même Martel, Op.Cit. ,T.1 , p.717.

63 - I.S.H.T.C. ,bob.187 , C.79 ,..... ; Le Gouverneur général de l'Algérie au Ministre des affaires étrangères à Paris , Alger , le 8/9/1898 ,f. 41 .

64 - Ibid. , Note datée du 20/12/1898 .

65 - Martel Op.Cit. ,T.1 ,p.721 .

66 - I.S.H.T.C.,bob.P.39 , C.78 ,..... ;Le Chef d'escadron d'Assailly – Commandant supérieur du cercle de Médenine au Général Commandant militaire ; Médenine , le 3/6/1898 ,f.70 ; de même Barry ,G. « Voyage du Cheikh sidi Med Taieb ben Brahim – Naib de l'ordre d'él- Kadria d'Ouargla à Ghadamès et à Ghât »,Recueil des notices et mémoires de la Société Archéologique du Département de Constantine , Volume 48 , 1914 ;pp255 – 264 , p.255.

67 - Ibid. ,f. 193 .

68 - Ibid. f.190 191.

69 - Ibid. f.192.

70 - Ibid. ,Plan de Ghât et ses environs ,fait d'après le croquis du Sheikh Med Taieb ben Brahim – Macadam el – Kadria -,f.194 ,2 ,أنظر الملحق رقم 2

71 - Ibid. , Voyage du Cheikh Med f.192-193 ; de même Barry ,Op.Cit.,p.255 .

72 - « La mort du Naib d'Ouargla » ,La Dépêche Tunisienne , du 3/4/1901

73 - Droulers , Op.Cit. ,p.246.

74 - Ibid. , de même « la mort du Naib..... »

75 - أبو زيد قصيبة(أحمد) ، "ابن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871 " ، مجلة الأصالة (الجزائر) ، عدد 6(جانفي 1972) ، ص 54 – 64 ، ص 58.

76 - بو عزيز ، "أضواء على ثورة أولاد سيدي الشيخ (1864 – 1873)" ، مجلة الثقافة (الجزائر) ، عدد46 ، (أوت – سبتمبر1978) ، ص 11 – 32 ، ص 24 .

77 - قصيبة ، المقال المذكور سابقا ، ص 62 .

78 - Bachrouh, T., Le Saint et le Prince en Tunisie, Tunis ,Publications de l'Université de Tunis, 1989 ,p.205 .

79 - Archives nationales de Tunisie, Série D ,C.97 ,dossier 3 ,»Confrérie des Kadria »,pp.4-5.

80 - ابن النّوري (محمد الطيّب)، الجريد قبيل انتصاب الحماية الفرنسية(1840- 1881) ، شهادة التعمّق في البحث ، مخطوطة ، تونس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، 1987 ، ص 210 – 211

81 - من ذلك مثلاً ما حاق ببعض زعماء ثورة الأوراس سنة 1871 ، حيث حكم – يوم 19/4/1873 – على – سي عزيز- الابن الأصغر للشيخ الحدّاد بالنفي، ويوم 14/8/1873، عدّل الحكم على أخيه الأكبر – الشيخ محمد –بنفيه هو الآخر مع أخيه سي عزيز، إضافة الى أحمد بومزراق شقيق الباش آغا المقراني ، أنظر ذلك بالتفصيل في بو عزيز ، "عودة الى نهاية حياة الشيخ عزيز بن الحدّاد في المنفى" ، مجلة الثقافة ، عدد 96(نوفمبر – ديسمبر 1986) ن ص 117 – 137. د

82 - أنظر أمثلة عن ذلك في بو عزيز "مواقف الرّسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكلبوطي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871" ، مجلة الأصالة ، عدد 61/60(أوت – سبتمبر 1978) ، ص 157 – 202.

83 - بعد أن كان للعديد من مشسائخها الدور البارز في قيادة العديد من الثورات في الجزائر بالخصوص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبحت للبعض منهم بعد ذلك مواقف مهادنة بل وولاء للاستعمار وتقديم خدمات تخدم مصالحه في البلاد ، كما كان الشأن مثلاً بالنسبة الى ابراهيم بن الحاج محمد بن بلقاسم - أخ شيخ زاوية الرحمانية بالهامل الذي تطوَّع - طيلة الحرب العالمية الأولى - ضمن فيلق الصبايحية الجزائريين ، حيث تمَّ توظيف "هيبته ونفوذه" في الرِّفَع من معنويات الجرحى من العساكر المسلمين المعالجين آنذاك في المؤسَّسات الاستشفائية بفرنسا ، وهي خدمات أهلتَه لنيل "وسام الافتخار"، كما تمَّ استقباله من طرف الرئيس الفرنسي نفسه آنذاك ألكسندر ميلران، لتتمَّ - في الأخير تسميته "قائد"، أنظر،

Meynier, G., l'Algérie révélée, la guerre de 1914-1918 et le premier quart du XXème siècle, Genève, Librairie Drez, 1981, p.270.

كما أنَّ الباش آغا المقراني "ابن" الشيخ المقراني الذي قاد ثورة الأوراس سنة 1871 ، تطوَّع كذلك في الحرب المشار اليها ، حيث كان ضمن فرسان بلدة بوسعادة الذين انطلقوا - سنة 1914 - "للدِّفاع عن فرنسا"، الأمر الذي اعتبره -آنذاك- أحد مسؤولي هذه الأخيرة «أفضل برهان على ولاء ووفاء أهالي الجزائر» على حدِّ قوله أنظر،

« Le fils de Mokrani », La Dépêche Tunisienne ,du 2/9/1914,p.2 - 3 .

في نفس الإطار، يمكن كذلك الاستدلال أيضا بالمدع بومرزاق الوانوعي المقراني الإبن الآخر لزعيم انتفاضة 1871 :ذلك أنَّ رغبة فرنسا في الإحاطة "الدينية والاجتماعية" على جبهات القتال بالمجنَّدين المغاربة في الحرب الأولى حثَّم عليها - تنفيذاً لقرار وزير الحرب الفرنسي الصادر في 1915/4/27 - توجيه سبعة أيمَّة الى الحكومة العسكرية بباريس لوضعهم على دَمَّة مختلف الضيالق العسكرية الفرنسية ، فكان ممَّن وقع عليه اختيار الوالي العام للجزائر الرجل المشار اليه، والذي كان آنذاك مفتياً لمدينة الأصنام ومدرِّساً بها ، بالإضافة الى المسمَّى عبد الرَّحمان القطرانجي الذي كان هو الآخر يشغل خطَّة عدل بالمحكمة المالكية بمدينة الجزائر، مع العلم وأن المذكورين سلماً مسؤوليتهم امامة الجامع الذي "نوجان سير مارن" (Nogent-sur-Marne) شيدته فرنسا في ، والذي أفتتح عشية دخول رمضان يوم 1916/4/14 ، علماً وأنَّ الرجلين استغلاً منبر الجامع المشار اليه في التَّمكين لفرنسا ، والدَّعاء لها بالنصر في الحرب، كما وظَّفتهما فرنسا في الردِّ على كتاب الجزائري رابح بوكبوية الموسوم بـ "الإسلام في الجيش الفرنسي"، (بالفرنسية) حيث جاء رَدُّهما تحت عنوان "الإسلام في الجيش الفرنسي: ردٌّ على أكاذيب" (بالفرنسية)، مع العلم وأن المقراني المشار اليه ، فضلاً عن الامتيازات التي نالها "مكافأة" له على خدماته ، تمَّ كذلك توظيفه من قبل الاستعمار الفرنسي في حثَّ أبناء العائلات المنتفذة في الجزائر على الانخراط في الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الفرنسي، فقبل القيام بجولات دعائية في جهات "أورليون فيل" وبوسعادة وخصوصاً ضمن "أبناء صفِّه" المنتمين للطريقة الرَّحمانية ، مع العلم وأنَّ السلطات الاستعمارية - مساهمة منها في انجاح مهمَّته - مكَّنَّته من التنقُّل مجاناً على خطوط الشبكة الحديدية الجزائرية ، وكذلك على متن السفن ، فضلاً عن مبالغ مالية بعنوان "تعويض سفر"، وبذلك شرع المقراني - بتاريخ 1918/1/26 - في مهمَّته التي راهنت عليها سلطات الاحتلال في الزَّيادة في عدد المجنَّدين المسلمين من الجزائر، لذلك لا غرابة أن يطلب المقراني - مقابل ذلك - تمكينه من أراضي توجد بدائرة قسنطينة ، أو كراؤها له بثمن بخس ، وهو ما وافق عليه الوالي العام للجزائر، شريطة أن يمنح تلك الأراضي بجهة الببيان (كلَّ هذه القضايا وغيرها ، هي - حالياً - محلَّ اهتمام من قبلنا في اطار كتاب نحن بصدد اعداده حول : "المعهد الإسلامي وجامع باريس : الإسلام من منظور فرنسي (1922 - 1939) ، نأمل أن يرى النور قريباً)

84 - I.S.H.T.C., N.S., bob.187, C.79, Affaire Mores III , Note datée du 21/8/1898, f.21.

85 - A.N.T., Série D, C.4, Med et -taib ben Brahim - Chef des Kadria d'Ouargla - au Capitaine d'État-major, attaché militaire à la Résidence générale française à Tunis , le 24/7/1898.

86 - I.S.H.T.C., N.S., bob.187, C.79, Note datée du 21/8/1898, f.19.

87 - لم يكن ذلك شأن - كما أشرنا - محمد الطيب بن ابراهيم فقط ، وأنما كذلك شأن مثلاً محمد بلعبَّاس شيخ القادرية بزاوية المنبوعة بالأوراس الذي كان أفضل وسيلة للسلطات الاستعمارية ضدَّ الثوَّار في المنطقة المذكورة ، حتى أنَّ ابنه قتل في صفوف الجيش الفرنسي ، كل ذلك لأنه كان قائداً أنظر

Dépont, O. et Coppolani, X., Les Confréries religieuses musulmanes en Algérie, Alger, Adolphe Jourdan, 1897, p.264.

88 - ففي "ثورة أولاد سيدي الشَّيخ" مثلاً، وبعد ابعاد السلطات الفرنسية لسي حمزة - زعيم العائلة المذكورة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الى وهران بعد أن رأت منه فتورا في خدمة سياستها التوسَّعية - (أنظر تفاصيل ذلك في بوعزيز، "أضواء على ثورة أولاد سيدي الشَّيخ)، عيَّنت أخاه سي النُّعيمي قائداً على اثني عشرة قيادة ، فما كان منه الا أن تعقَّب الثوَّار، لكن بعزله بعد مدَّة

- وجيزة التحق بصفوف المقاومة (أنظرنفس المقال ، ص 14)، ولجابهة ذلك الوضع ، أفرجت السلطات الاستعمارية على سي حمزة ، وأعدت له الاعتبار كزعيم لأولاد سيدي الشيخ الشرافة استمالة له ضد الثوار، فأبلى البلاء الحسن ، حيث لاحق أخاه سي النعيمي ، وابن عمه محمد بن عبد الله ، ومكافأة له على ذلك عينته سلطات الاحتلال "خليفة" على كل المناطق الصحراوية الممتدة من البيض الى ورقلة ، وهو منصب بقي فيه وفاته (أنظرنفس المقال ، ص 15). كما أعتبر الحط من منصب سي سليمان – ابن حمزة السابق الذّكر – من منصب "باش آغا" سببا من أسباب ثورة سي سليمان في فيفري 1864 (أنظرنفس المقال ، ص 17)، وهي الثورة التي تدعّمت بانضمام "زعيم أولاد مختار....، الذي عزله الفرنسيون – هو الآخر – من منصبه ... (أنظرنفس المقال ، ص 24)
- 89 - راجع ذلك بالتفصيل في مقالنا ، "الوضع الطرقي بالجريد في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر"، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 75- 76 (ماي 1994)، ص 301 – 351
- 90 - أنظر مختلف مظاهرها في مقالنا المذكور ، ص 316 وما بعدها
- 91 - أنظرنفس المقال ، ص 329.
- 92 - أنظرنفس المقال ، ص 322 و323
- 93 - A.N.T., Série D , C.102 ,dossier 4, Le Cheikh Med et- taib ben Brahim – Moqadem des Kadria de Ouargla au Général commandant la Division d'occupation de Tunisie, le 29/7/1898.
- 94 - بوعزيز ، "اهتمامات الفرنسيين ، ص 368 .
- 95 - Martel , Op.Cit. , T.2 , p.219 .